الوسطيّة مفهوما وتأصيلا

بقلم
أ. حمزة العيدلي
ماجستير في الفقه وأصوله ـ الثالثة دكتوراه علوم ـ قسم الشريعة
معهد العلوم الإسلامية ـ جامعة الوادي
laidlihamza@yahoo.com

ملخص البحث

تحدّث الباحث في هذا البحث على معنى الوسطيّة في اللغة والاصطلاح، حيثُ ذكر أنّ مادّة (وسط) في اللغة ضبطت على وجهين، بتسكين السّين وبتحريكها، فتأتي بتسكين السّين ظرفا بمعنى بين، وأمّا بتحريكها فتأتي على معان منها: العدل، والخيريّة، والتوسُّط في الأشياء بين بين، وأمّا المعنى الاصطلاحي فقد ذكر الباحث جملة من التّعاريف، ثمّ صاغ تعريفا من عنده، وتحدّث الباحث بعد ذلك عن تحرير معنى الوسطيّة وأنّها لا تُطلق إلا إذا توفر فيها أمران وهما: الخيريّة والبينيّة، كما قام الباحث أيضا ببيان التّأصيلات الشرعيّة للوسطيّة من الكتاب والسّنّة، حيث ذكر أنّ مادة (وسط) وردت في القرآن الكريم في خمسة مواضع: وسَطًا، الوُسطى، أوسط، أوسطهم، فوسطن، وذكر أيضا اثنا عشر حديثا وردت فيها مادّة الوسط، كما ذكر الباحث أيضا مقاصد الوسطيّة، وقبل ذلك قام بتعريف المقاصد في اللغة والاصطلاح، وعرّج على علاقة مقاصد الشّريعة الإسلاميّة بالوسطيّة، ثمّ بعد ذلك ذكر أهمّ مقاصد الوسطيّة وهي: تحقيق الخيريّة، تحقيق الأمن والأمان، تحقيق القوّة، تحقيق وحدة الأمّة، محاربة التطرُّف والتشدُّد، تحقيق اليُسر ورفع الحرج، كما تحدّث الباحث أيضا عن خصائص الوسطيّة فذكر أهمّها وهي: الرّبّانيّة بنوعيها: ربّانية المصدر والمنهج، وربّانية الغاية والوجهة، التّوازن بين الرّوحية والمادّيّة، الثّبات والاستمرار، الواقعيّة، ثمّ ذكر الباحث بعدها معايير الوسطيّة وضوابطها التي تضبطها كالملائمة بين الثّوابت والمتغيّرات، وفهم النّصوص الجزئيّة في ضوء مقاصدها الكلّيّة وغيرها من المعايير، ثمّ ختم الباحث بذكر أهم النتائج المتوصّل إليها، مع اقتراح جملة من التّوصيات.

مقدّمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظّالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وليُّ المتّقين، وأشهد أنّ نبيّنا محمدا عبده ورسوله سيّد ولد آدم أجمعين، صلّى الله عليه، وعلى آل بيته الطّيّبين الطّاهرين، وصحابته الغُرّ المحجّلين، وسلّم تسليما كثيرا، وبعدُ:

فإنّ الأمّة الإسلاميّة في هذه الأزمنة لتواجه أعتى صنوف التّحديات، وأصعب ألوان الصّراعات على مختلف الأصعدة والميادين، وإنّ من أبرز التّحديات التي تواجهها، هي تلك الحملات المسعورة من هنا وهناك، التي تهدف إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين، والتي تحاول أيضا إبراز صورة الإسلام تلك الصورة البشعة التي تُروِّعُ الآمنين، والتي تُظهر هذا الدين على أنّه دين العنف والإرهاب، المتعطِّش لسفك دماء النّاس، وهتك أعراضهم، والتّعدّي على حرماتهم، إلى غير ذلك من أنواع التُّهم والافتراءات التي ديننا منها براءٌ، واستغلوا في سبيل هذه الحملة الشّرسة كُلّ ما أوتوا من قوّة وتطوُّر في مجالات الإعلام وصناعة الرّأي العام، ولهذا كان لزاما على أبناء هذا الدّين أن ينبروا إلى مواجهة هذه الحملات والادّعاءات، وذلك عن طريق إبراز حقيقة هذا الدّين وسماته، تلك السّمات التي يسعى أعداء دين الله أن يُخفوها عن النّاس.

ألا وإنّ من أبرز سمات هذا الدّين الحنيف التي ينبغي أن تُشهر وتنشر على أوسع نطاق: سمة الوسطيّة والاعتدال، التي تعتبر أَجَلَّ صفات هذا الدّين، ولهذا أثنى الله تعالى على هذه الأمّة، بل امتنَّ عليها أن جعلها سائرة على النّمط الوسط، والطّريق العدل الخيار، وبذلك استحقّت أفضل المراتب، وأسنى المطالب؛ حيث جعلها الله تعالى الأمّة الشّاهدة على سائر الأمم، كما قال عزّ شأنه وجلَّ مقامه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة:143]، وإذا كان ذلك كذلك؛ فإنّه من أوجب الواجبات على بني الأمّة أن يُجدُّوا ويجتهدوا في إظهار معاني الوسطيّة، وتأصيل قواعدها، وبيان معالمها، وكذلك بيان الدّور الفعّال للوسطيّة في مواجهة موجات الغلوّ والتّطرُّف والتعصُّب، وذلك عن طريق تسليط الضّوء على هذه السّمة العظيمة للإسلام، عن طريق المؤلفات والنّدوات واللقاءات والحوارات، التي تهدف إلى نشر ثقافة الوسطيّة في أوساط الميادين العلميّة والسّاحات الدّعويّة.

وإنّ من أعظم الخطوات في هذا المبحث، ما عزم عليه معهد العلوم الإسلاميّة بجامعة الشّهيد حمّة لخضر بولاية الوادي؛ من تنظيم مُلتقًى دُوَلِيٍّ حول الوسطيّة في الغرب الإسلاميّ، وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا وأوروبا، المزمع عقده يومي: 14و15ربيع الأوّل1439هـ، فهذه المبادرة من الخطوات المباركة التي تهدف إلى تكريس هذه الثقافة الإسلاميّة الهادفة، ولهذا فإنّني أجمعت أمري في كتابة بحث حول موضوع الوسطيّة، وفق مقتضيات هذا الملتقى المبارك، وقد وقع اختياري على المحور الأوّل المتعلّق بمفهوم الوسطيّة، وتأصيلاتها الشّرعيّة من الكتاب والسّنّة، مع بيان أهم مقاصدها وخصائصها ومعاييرها.

التّعريف بالموضوع وبيان أهميّته: فكما أسلفت بالذّكر أن هذا البحث جاء وفق مقتضيات الملتقى الدّولي الأول حول الوسطيّة في الغرب الإسلاميّ، وأثرها في نشر الإسلام في إفريقيا وأوروبا، المزمع عقده يومي: 14و15ربيع الأوّل1439هـ، وقد وقع اختياري فيه على المحور الأوّل المتعلّق بمفهوم الوسطيّة، وتأصيلاتها الشّرعيّة من الكتاب والسّنّة، مع بيان أهم مقاصدها وخصائصها ومعاييرها، وإنّ أهميّة هذا البحث وهذا المحور تتجلى فيما يلي:

- بيان مفهوم الوسطيّة وتحديد معناها من حيثُ اللغةُ والاصطلاحُ.

- تحرير معنى الوسطيّة ومدلولها الحقيقيّ.
- تأصيل مفهوم الوسطيّة من نصوص كتاب الله وسنّة النّبيّ ﷺ
- بيان علاقة الوسطيّة بمقاصد الشّريعة الإسلاميّة، مع ذكر أهم مقاصد الوسطيّة وأهدافها.
- الوقوف على أهمّ خصائص الوسطيّة ومميّزاتها.
- ذكر أهم معايير الوسطيّة وضوابطها، حتى لا يدّعي كُلُّ واحد منهج الوسطيّة وهي منه براء.

إشكالية البحث: إنّ الإشكاليّة المطروحة في هذا البحث وهذا المحور الذي وقع الاختيار عليه؛ هو ما يُلاحظ من تلك الأهميّة البالغة التي تحظى بها الوسطيّة في دين الإسلام، وكما لا يخفى على كُلِّ ذي لُبٍّ أنّه ما من شخص متصدّر للدّعوة إلى الله تعالى، وما من تيار من جملة تلكم التيارات العديدة التي تكتسح السّاحة الدّعويّة عبر مختلف ربوع العالم الإسلاميِّ وغيره؛ ما من هذا وذاك إلّا ويدّعي الوسطيّة والاعتدال في منهجه وأسلوبه، على الرّغم من كثرة الاختلافات فيما بينها، سواءً في الأهداف المسطّرة أو الوسائل المتّخذة، ولهذا كان لزاما علينا وضع أهم المعالم الأساسيّة لهذا المنهج الكريم، حتّى تتضح أُسُسُهُ، ويتبيَّنَ رسمُه، ولا يصير مفهوم الوسطيّة مفهومًا رَجْرَجًا هُلاميًّا يدَّعيه كُلُّ ذي شِرْعَةٍ ومنهج، وعلى هذا؛ فالأسئلة المثارة هاهنا هي:

- ما هو المفهوم الحقيقي والمحرّر للوسطيّة حتّى لا يدّعيه أي أحد.
- وما هي النّصوص الشّرعيّة من الكتاب والسُّنَّة التي وردت فيها مادّة الوسطيّة.
- ثمّ ما هي مقاصد الوسطيّة وأهدافها التي تصبو إليها.
- وكذلك ما هي أهمُّ الخصائص والمعايير التي تضبط مفهوم الوسطيّة.

فهذه الأسئلة وغيرها ضروريّة جدّا لتحديد معنى الوسطيّة الصّحيح، حتى تنضبط كُلُّ الدّعوات والتّيارات بهذه الضّوابط، لتكون الوسطيّة سمة وعلامة لها، وهذا البحث بإذن الله وفق الخطّة المقترحة كفيل بالإجابة عليها.

الدّراسات السّابقة: إنّ موضوع الوسطيّة من المواضيع المهمّة التي أُشبعت بحثا وتحليلا، وليس هذا من باب التّكرار الممجوج، بقدر ما هو من باب الإكثار والتّنويع في المواضيع بالغة الأهميّة، ولهذا فإن البحوث والدّراسات المتعلّقة بالوسطيّة كثيرة، وسأذكر منها ما يلي:

- الوسطيّة في الإسلام، مفهومها وضوابطها وتطبيقاتها، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير، إعداد: فريد محمد هادي عبد القادر.
- الوسطيّة في ضوء القرآن الكريم، للشيخ الدّكتور ناصر بن سليمان العمر.
- كلمات في الوسطيّة الإسلاميّة ومعالمها، للشيخ الدّكتور يوسف القرضاويّ.
- الوسطيّة في القرآن الكريم، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير، إعداد الدّكتور: علي محمد الصّلابي.
- الوسطيّة في الإسلام وأثرها في الوقاية من الجريمة، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير، إعداد: عبد العزيز عثمان شيخ محمد.

- معالم الوسطيّة في الوقاية من العنف والتّطرُّف، لوصفي عاشور أبو زيد.
- الوسطيّة في الإسلام تعريفٌ وتطبيق، للدّكتور: زيد بن عبد الكريم الزّيد.
- ضوابط الوسطيّة (بين الفطرة والأمانة والفتنة)، لمحمد سالم عبد الحيّ بن دودو.
- الوسطيّة في الإسلام، لمحمد عبد اللطيف الفرفور.

المنهجيّة المتّبعة في الدّراسة: بما أنّ هذا البحث وهذا المحور الأول قائم على عرض وتوضيح مفاهيم عديدة تتعلّق بالوسطيّة، كما أنّ في هذا البحث تتبُّعا لنصوص الوحيين التي وردت فيها مادة الوسطيّة؛ فإنّ طبيعة هذا البحث تقتضي أن يكون المنهجُ المتّبعُ فيه هو منهج الاستقراء مع التحليل، فهذا المنهج هو الكفيل بأن يُبرز ما أردت ذكره وتوضيحه في هذا البحث.

خطّة البحث: لقد جاء هذا البحث وفق الخطّة المنهجيّة الآتية:

- المقدّمة: ذكرت فيها التّعريف بالموضوع وأهميّته، وبيان إشكاليّته، والمنهج المتّبع...وغيرها.
- **المبحث الأوّل: في تعريف الوسطيّة وتأصيلاتها الشّرعيّة.**
  - المطلب الأوّل: في تعريف الوسطيّة لغة واصطلاحا.
  - **المطلب الثّاني: التّأصيلات الشّرعيّة للوسطيّة من الكتاب والسّنّة.**
- **المبحث الثّاني: في بيان مقاصد الوسطيّة، وخصائصها، ومعاييرها.**
  - المطلب الأوّل: في بيان مقاصد الوسطيّة.
  - **المطلب الثّاني: خصائص الوسطيّة.**
  - المطلب الثّالث: معايير الوسطيّة وضوابطها.
- الخاتمة: حصر أهم نتائج البحث/ توصيات.

وفي الختام فإنّي أتوجه إلى الله تعالى بالشُّكر والامتنان على ما تفضّل عليَّ به من الإعانة على إكمال هذا البحث وإتمامه، كما لا أنسى أن أزجي شُكْرِيَ العطِرَ للأستاذ الدّكتور: نور الدّين صغيري على إشرافه وتوجيهاته إليَّ في هذا البحث، كما أسأل الله تعالى أن يجعل هذا البحث خالصا لوجهه الكريم، وفي خدمة هذا الدّين العظيم، وأن يجعله في ميزان الحسنات يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المبحث الأوّل: في تعريف الوسطيّة وتأصيلاتها الشّرعيّة.

المطلب الأول: في تعريف الوسطيّة لغة واصطلاحا.

الفرع الأوّل: الوسطيّة في اللغة: إنّ كلمة (الوسطيّة) بناءٌ لغويٌّ صحيحٌ يدل على معانٍ عدّة متقاربة في مدلولها كما ذكر ذلك أئمّة اللغة، يقول الإمام ابن فارس[1] في معجم المقاييس: "الواو والسّين والطّاء: بناءٌ

[1] هو الإمام أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب، أبو الحسين اللُّغويُّ القزوينيُّ، من أئمّة النّحو على طريقة الكوفيّين، أخذ العلم عن أبيه، وعن إبراهيم بن سلمة القطّان وغيرهم، وتتلمذ على يديه بديع الزّمان الهمدانيّ، لم تذكر المصادر تاريخ مولده، لكنّهم ذكروا أنّه توفّي سنة (395هـ)، من تآليفه: المجمل في اللغة، مقاييس اللغة، اختلاف النّحويين وغيرها.يُنظر ترجمته في: معجم الأدباء لياقوت الحموي: (1/410-418). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنّحاة للسيوطيّ: (1/352-353).

صحيحٌ يدلُّ على العدل، والنِّصف، وأعدلُ الشّيء أوسَطُهُ وَوَسَطُه..."[2]، وقبل الخوض في ذكر معاني الوسطيّة من النّاحيّة اللغويّة لا بُدّ من التّنبيه على أمر مُهمٍّ وهو أنّ كلمة (وسط) قد ضُبطت لغة على وجهين اثنين وهما: (وَسْط) بتسكين السّين، و(وَسَط) بتحريكها، ولكُلٍّ منهما معناه الذي يدلُّ عليه:

– الوجه الأوّل: (وَسْط) بتسكين السّين، وعلى هذا الضّبط تكون ظرفا بمعنى (بَيْنَ) وزنا ومعنى، فهي على هذا المعنى ظرفٌ وليست اسما جاءت على وزن نظيرها (بين)، تقول: (جلستُ وسْطَ القوم) أي: بينهم، ومنه قول الشّاعر سوّار بن المضرّب[3]:

إنِّي كأنِّي أَرَى مَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ وَلَا أَمَانَةَ وَسْطَ النَّاسِ عُرْيانَا [بحر البسيط]

فوسط هنا بمعنى: بين، وفي هذا يقول صاحب اللسان: "وأمّا الوَسْط بسكون السّين فهو ظرفٌ لا اسمٌ، جاء على وزن نظيره في المعنى وهو (بين)، نقول: جلست وسط القوم أي بينهم"[4].

– الوجه الثّاني: (وَسَط) بتحريك السّين، وعلى هذا الضّبط تأتي لمعانٍ عديدة متقاربة، فتأتي:

1) اسما لما بين طرفي الشّيء وهو منه، تقول: أمسكت وسَطَ الحبل، وكسرت وسَطَ الرُّمح، وجلستُ وسَطَ الدّار، جاء في لسان العرب: "اعلم أنّ الوَسَطَ بالتّحريك اسمٌ لما بين طرفي الشّيء وهو منه، كقولك: قبضت وسط الحبل، وكسرت وسط الرُّمح، وجلست وسط الدّار"[1].

2) وتأتي صفةً بمعنى: (خيار وأفضل وأجود)، فأوسط الشّيء أفضله وخياره وأجودُه، ومنه المرعى الوسط، أي: المحل الأفضل من طرفيه، ورجلٌ وَسَطٌ أو وسيطٌ أي: أوسطهم نسبا وأرفعهم مجدا[2]، وهم وسطٌ في قومهم، أي: خيارٌ فيهم، ومنه قول زهير[3]:

هُمُ وَسَطٌ يَرْضَى الْأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى الَّلَيَالِي بِمُعْظَمِ [الطّويل].

ومنه: واسطة القلادة، التي هي الدّرّة التي في وسطها، وهي أنفسُ خرزها تُجمِّلها وتُزيِّنها[4]، ومنه قول ابن الرُّوميِّ[5] يبكي أحسن أبنائه:

---

(2) مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس: (6/108).

(3) هو سوّار بن المضرّب السّعديُّ، من سعد بني تميم، وقيل: من سعد بني كلاب، شاعر إسلاميٌّ، والمضرَّبُ؛ ذُكر أنّه سمّي بذلك لأنّه شبّب بامرأة فضربه أخوها لذلك، والبيت نسبه إليه أبو زيد الأنصاريّ في النّوادر: (ص:45)، وابن منظور في اللسان: (15/294).

(4) لسان العرب لابن منظور: (15/294).

(1) المصدر السّابق: (15/294).

(2) المصدر نفسه: (15/296).

(3) هو زهير بن ربيعة بن رياح بن قرط المزني، أشعرُ شعراء الجاهليّة، وأبعدهم عن السّخافة، وأجمعهم لكثير المعنى في قليل الكلام، وأكثرهم أمثالا. يُنظر: طبقات فحول الشّعراء، لمحمد بن سلام الجمحيّ: (1/63–65)، والشّعر والشّعراء لابن قتيبة: (1/137).

(4) يُنظر: الصّحاح لإسماعيل بن حمّاد الجوهريّ: (6/1167).

(5) هو عليُّ بن العبّاس بن جريج ويُقال: (جورجيس)، أبو الحسن المشهور بابن الرّوميّ، مولى عبد الله بن عيسى بن جعفر البغداديّ، ولد ببغداد سنة (221هـ)،كان من أبرز الشّعراء العبّاسيّين، أصله روميٌّ كما ذكر ذلك هو نفسه وافتخر به في كثير من

تَوخَّى حِمَامُ المَوْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِي فَلِلَّهِ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ العِقْدِ [الطّويل].

3) تأتي بمعنى (عدل أو أعدل) كما تقدّم من كلام ابن فارس آنفا، فوسَطُ الشّيء وأوسَطُه أعدله، والوَسَطُ بالتّحريك: من كُلِّ شيء أعدله[6].

4) وتأتي بمعنى الشّيء المعتدل بين الجيِّد والرّديء، فالوسط هنا: الشيء المعتدل الواقع بين بين، يقول صاحب الصّحاح: "ويُقال أيضا (شيء وسطٌ) أي: بين الجيِّد والرّديء"[7]، وقال صاحب المصباح: "الوسَطُ بالتّحريك: المعتدل، يُقال: شيء وسط أي: بين الجيِّد والرّديء"[8].

الفرع الثّاني: الوسطيّة في الاصطلاح: إنّه من المعلوم لدى الباحثين والمنشغلين بالعلم أنّه ما من معنى اصطلاحيٍّ إلا وله تعلُّقٌ بالمعنى اللُّغويِّ، وهذا أمرٌ أوضحُ من أن يُفسّر ويُظهر، وهكذا الأمر بالنّسبة لمفهوم الوسطيّة من النّاحية الاصطلاحيّة، فإنّ له كُلَّ التّعلُّق بالمعاني اللُّغويَّةِ، وقد سبق معنا في الفرع الذي مضى مفهوم هذه الكلمة ومدلولها من النّاحية اللُّغويّة، وأنّها دائرة على معاني: البينيّة، والأفضليّة والخيريّة، والعدل، والاعتدال في الأشياء وغيرها من هذه المعاني المتقاربة بين بعضها البعض، ولهذا فإنّ المعنى الاصطلاحيَّ لكلمة الوسطيّة تجده لا يخرج عن هذه المعاني الفاضلة.

ومن الجدير بالذّكر هاهنا أنّ مصطلح (الوسطيّة) من المصطلحات حديثة النّشأة التي لم تؤثر عن الأئمّة السّابقين، صحيحٌ أنّ معناها وفحواها طافحٌ في كتب المتقدّمين من الأئمّة، ومضمونُها عميقٌ في التّراث الإسلاميّ، ولكن بهذا الاصطلاح لم يكن معروفا ولا معهودا عندهم، ولهذا يرى كثير من الباحثين أنّ مصطلح الوسطية بدأ يطفو على السّاحة العلميّة والدّعويّة في الثّمانينيّات من القرن الماضي، وخاصّة في كتب ومقالات الشيخ الدّاعية الكبير الدّكتور: يوسف القرضاوي، وعلى هذا الأساس فلا غرابة في عدم الظّفر بتعريف اصطلاحيٍّ لهذه الكلمة من العلماء المتقدّمين، ولهذا سأحاول ذكر بعض التّعاريف التي ذكرها بعض المعاصرين، مع بيان أفضل التّعاريف وأحسنها وأجودها، ومحاولة صياغة تعريف جامع بينها.

إنّ أحسنَ تعريف وقفتُ عليه للوسطيّة هو ما ذكره الشيخ الدّكتور يوسف القرضاويُّ في كتابه: (كلمات في الوسطيّة الإسلاميّة ومعالمها) حيث قال معرِّفا إيّاها: "ونعني بها: التّوسُّطَ أو التّعادلَ بين طرفين متقابلين أو متضادّين، بحيثُ لا ينفردُ أحدُهما بالتّأثير، ويطّردُ الطّرف المقابل، وبحيثُ لا يأخذُ أحدُ الطّرفين أكثرَ من حقّه، ويطغى على مقابِلِه ويحيفُ عليه"[1]، ثمّ بيّن وضرب أمثُلًا للأطراف المتقابلة والمتضادةِ المطلوبِ تحقيقُ

أبيات شعره، وأمه فارسيّة، تعرّض في حياته إلى كثير من النّكبات والمآسي التي أثرت في حياته وانعكست على شعره، توفي مسموما عام (283هـ)، وله ديوان حافل بالشّعر.ترجمته في: تاريخ بغداد: (13/472-476)، وفيات الأعيان لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلّكان: (3/358-363).

[6] الصّحاح للجوهريّ: (6/1167).

[7] المصدر نفسه: (6/1167).

[8] المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير لأحمد بن محمد بن علي الفيّومي: (2/194).

[1] كلمات في الوسطيّة الإسلاميّة ومعالمها، يوسف القرضاويّ: (ص:13).

التّوازن فيها وذلك مثل: الرّبانيّة والإنسانيّة، الرّوحيّة والمادّيّة، الأُخرويّة والدّنيويّة، الوحيُ والعقلُ، الواقعيّة والمثاليّة، الثّباتُ والتّغيُّر، فكُلُّ هذه المتقابلات والمتضادّات الوسطيّةُ فيها تعني تحقيق التّوازن بينها، بحيثُ يُفسح لكُلِّ طرفٍ منها مجاله، ويُعطى حقَّه بالقسطاس المستقيم[1].

وقد عرّفها أيضا الدّكتور فريد عبد الكريم الفريد بقوله: "هي معنىً يتّسع ليشمل كُلَّ خصلة محمودة لها طرفان مذمومان، فإنّ السّخاء وسطٌ بين البخل والتّبذير، والشّجاعة وسطٌ بين الجُبن والتّهوُّر، والإنسانُ مأمور أن يتجنّبَ كُلَّ وصف مذموم، وكلا الطّرفين هنا وصفٌ مذموم، ويبقى الخيار والفضل للوسط "[2].

وعرّفها عبد الله بن سليمان الغفيليّ بقوله: "الوسطيّة في الشّرع تعني الاعتدال والتّوازن بين أمرين أو طرفين بين إفراط وتفريط، أو غلُوٍّ وتقصير، وهذه الوسطيّة إذن هي العدل الطّريق الأوسط الذي تجتمع عنده الفضيلة "[3].

ومن الملاحظ في هذه التّعاريف المنقولة هو أنّها كلُّها تصبُّ في مضمار وسياق واحد، ولهذا يُمكنني في هذا المقام أن أقترح وأصوغ تعريفا للوسطيّة انطلاقا من تعاريف العلماء السّابقين، وأرجو من الله تعالى ألّا يكون هذا من التّطاول على قدر النّفس في شيء، وإنّما هو جريٌ على سَنَنِ أهل العلم والفضل، ولهذا يُمكن لنا أن نعرِّف الوسطيّة اصطلاحا بأنّها: "وضع الشيء في الأمور المتقابلة أو المتناقضة على نحو متوازِنٍ ومتعادل بين طرفي التّناقض، بحيثُ لا يغلبُ أحدُ النّقيضين على الآخر"، والوسطيّة هي المنهج الرّبّانيُّ في التّعامل مع الأمور الذي ارتضاه الله جلّ وعلا لعباده المؤمنين، وهي الميزة التي اختصّ الله بها هذه الأمة المحمديّة.

الفرع الثّالث: إطلاقات الوسطيّة: من خلال ما سبق ذكره وبيانه يتّضحُ لنا أنّ كلمة الوسط يراد بها عدّة معانٍ منها: الخيريّة، والعدل، وما كان بين الجيِّد والرّديء، وتطلق أيضا على مابين طرفي الشّيء وغيرها من المعاني التي قد ذُكرت وبُيِّنت قبلُ، كما عرفنا أيضا المعنى الاصطلاحيِّ للوسطيّة، والشيءُ الذي أريد بيانه والكشف عنه في هذا الفرع هاهنا هو: عن حقيقة إطلاق هذا المصطلح، أو على ماذا يُطلق لفظ الوسطيّة، ومتى يُطلق؟ وقد يقول القائل: ما الفرق الموجود بين هذا الفرع والذي سبقه؟ إذ أنّ كليهما يصبُّ في باب واحد! فيُقال: إنّ الفرع الذي قبله يتحدّث عن مفهوم الوسطيّة وتصوُّر معناها في الذّهن، و في هذا الفرع نتحدّثُ عن الاستعمال الواقعي للوسطيّة، والإطلاق الفعلي لها، فمتى تُطلق الوسطيّة وتوصف بها الأشياء، وما الأمور التي ينبغي توفُّرها حتى يُقال في الشّيء أنّه من قبيل الوسطيّة، خاصّة وأنّنا نرى اختلافا بين العلماء والمفكّرين في إطلاقاتهم للوسطيّة كما سيأتي، ومن هنا كمُنت أهميّة هذا الفرع.

فإنّ النّاظر والباحث في موضوع الوسطية يجد أنّ للعلماء والمفكّرين إطلاقين للوسطيّة[1]:

– الأوّل: فهناك من جعل مصطلح (الوسطيّة) مرادفا للخيريّة، ولو لم يكن هناك توسُّطٌ بين شيئين حِسًّا أو

---

[1] كلمات في الوسطيّة: (ص:13).

[2] يُنظر: الوسطية في التّرفيه بين المشروع والممنوع، الدكتورة رانيا محمد عزيز نظمي: (ص:13).

[3] يُنظر:الوسطيّة في الإسلام وأثرها في الوقاية من الجريمة، الدّكتور عبد العزيز عثمان شيخ محمد: (ص:12).

[1] يُنظر: الوسطيّة في ضوء القرآن الكريم، الشيخ الدّكتور ناصر العمر: (ص:28-29)، الوسطيّة في القرآن الكريم، الدكتور علي محمد الصّلابي: (1/ 41-42).

معنى، وعلى هذا الإطلاق لا يلزمُ لكُلِّ ما يُعتبرُ وسطا أن يكون له طرفان، فالعدلُ وسطٌ ولا يُقابله إلا الظُّلم، والصِّدقُ وسطٌ ولا يُقابله إلا الكذب.

– الثّاني: وهناك أيضا من جعل (الوسطيّة) من التوسُّط بين الشّيئين دون النّظر إلى معنى الخيريّة التي دلّ عليها الشّرع الحكيم.

وما ذُكر من هذين الاطلاقين على حدًا فيه نظر، وذلك أنّ المُتأمِّل فيما ورد في الكتاب والسُّنّة، وكذلك المأثور من كلام العرب فيما أُطلق وأُريد به مصطلحُ (الوسطيّة) يجد أنّ هذا المصطلح لا يصحُّ إطلاقه إلا إذا توافرت صفتان اثنتان وهما:

1) الخيريّة، أو ما يدلُّ عليها من المعاني المتقاربة كالأفضل والأعدل وغيرها.

2) البينيّة، سواءً أكانت حسيّةً أو معنويّةً[1].

وعلى هذا الأساس فإذا جاء أحدُ الوصفين دون الآخر فلا يكون داخلا تحت مسمّى الوسطيّة، ولا يُطلق عليه ذلك، فلا بُدّ مع الخيريّة من البينيّة حتّى تكون وسطا، فالقولُ بأنّ الوسطيّة ملازمة للخيريّة، أي أنّ كلّ أمر يوصف بالخيريّة فهو وسطٌ فيه نظر، بل العكس هو الصّحيحُ، إذ كلُّ وسطيّة تلازمها الخيريّة ولا عكس، وكذلك البينيّة أيضا لا تقتضي الوسطيّة بالضّرورة حتّى تتضمّن وجها من أوجه الخيريّة، فقد يكون الشّيء وسطا بين طرفي النّقيض –حسًّا ومعنًى– ولكنّه لا يكون وسطيا لافتقاره معنى الخيريّة.

ومن هنا نخلُصُ إلى هذا المعنى النّفيس وهو: أنّ أيّ أمر اتصف بالخيريّة والبينيّة جميعا هو الذي يصحُّ أن نُطلق عليه لفظ الوسطيّة، وما عدا ذلك فلا، وهذا الأمر من الأهميّة بمكان، وذلك لضبط وتحرير المعنى الحقّ الذي يُطلق للوسطيّة، وذلك للخلط الكبير الذي يقع فيه الكثير في مسمّى ومعنى الوسطيّة، حيثُ أنّ الكثير من النّاس جعل من معنى الوسطيّة مفهوما للتّساهل والتّنازل، وهذا من الخطأ الواضح، والحيف عن المعنى الصّحيح للوسطيّة، كما أنّ الكثيرين أيضا وقفوا في مفهوم الوسطيّة عند أصل دلالتها اللغويّة وهي التوسُّطُ بين الطرفين، مهما كان موضوع هذا الوسط الذي تمّ اختياره، فالوسطيّة عندهم تقتضي دائما وضع الشيء في الوسط بين طرفي النّقيض، دون التفات إلى وجه الخيريّة الذي ينبغي أن يكون سائدا على هذا التّوسُّط، فلوجود هذا اللّبس في معنى الوسطيّة كان لزاما على من يطرقُ هذا الموضوع أن يُحرّر معنى هذا المصطلح على هذا النّحو، وهو أنّ الوسطيّة لا تتحقّقُ إلا إذا اتّصف الأمرُ بالخيريّة والبينيّة.

المطلب الثّاني: التّأصيلات الشّرعيّة للوسطيّة من الكتاب والسُّنّة.

الفرع الأولُ: الوسطيّةُ في القرآن الكريم: لقد وردت مادّة (وسط) في القرآن الكريم في عدّة مواضع، وذلك بتصاريف متعدّدة، حيثُ وردت هذه المادّة في القرآن الكريم بلفظ: (وسطا)، و(الوُسطى)، و(أوسط)، و(أوسطهم)، و(فوسطن)، وسأذكر في هذا الفرع كُلَّ كلمة حسب ورودها في القرآن الكريم بمعانيها المختلفة، وذلك كالآتي:

---

[1] المصدران السّابقان.

– أولا: وردت هذه المادّة بمعنى العدل والخيار وذلك في قوله تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:143] فالوسط هنا بمعنى العدل والخيار كما ورد ذلك عن غير واحد من المفسّرين، وكما صحّ وثبت عن النّبيِّ صلى الله عليه وسلّم، فقد روى البخاريّ في صحيحه عن أبي سعيد أنّ النّبيَّ صلى الله عليه وسلّم قال: "يُدعى نوحٌ يوم القيامة فيقول: لبّيك وسعديك يا ربّ، فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيُقال لأمّته: هل بلّغكم، فيقولون: ما أتانا من نذير،فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمّته، فيشهدون أنّه قد بلّغ، ويكون الرّسول عليكم شهيدا، فذلك قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم...) الآية، والوسط: العدلُ"[1].

وروى الطّبريُّ بإسناده إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلّم أنّه قال في قوله: (وسطا) أي: عدولا، ثمّ ساق عددا من الرّوايات في هذا المعنى، ثمّ ذكر تفسيرها على هذا النّحو منسوبا إلى جمع من الصّحابة كابن عبّاس وأبي سعيد وأبي هريرة، والتّابعين كمجاهد وغيره[2].

وأمّا تفسيرها بالخيار فقد قال ابن كثير: "والوسط هنا: الخيار والأجود، كما يُقال: قريش أوسط العرب نسبا ودارا، أي: خيرها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم وسطا في قومه أي: أشرفهم نسبا، ومنه الصّلاة الوسطى التي هي أفضل الصّلوات وهي العصر"[3].

وقد نقل الإمام ابن الجوزيّ عن ابن قتيبة تفسير الوسط في هذه الآية الكريمة بالوصفين السّابقين معا فقال: "وقال ابن قتيبة: الوسطُ: العدلُ والخيار"[1].

– ثانيا: وجاءت هذه المادّة بمعنى الوسطيّة والتوسُّط حسيًّا كان أم معنويًّا، وذلك في قوله تعالى:﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة:238]، وقد اختلف المفسّرون في حقيقة الصلاة الوسطى على أقوال استوعبت الصّلوات الخمس كُلَّها، والذي يهمُّنا في هذا المقام ليس هو ترجيح قول على قول، فهذا له مظانُّ أخرى، بل الذي يهمُّنا في هذا المقام هو الملْحَظُ والاعتبار الذي اعتبره صاحب كُلِّ قول في ترجيح ما ذهب إليه، حيثُ إنّ أهل العلم ذكروا اعتبارات عديدة للأقوال التي رجّحوها واختاروها، فقد ذكر الإمام الطّبريُّ في تفسيره جملة من الأقوال، ثمّ قال بعد أن رجّح أنّها صلاة العصر: "وإنّما قيل لها الوسطى: لتوسُّطها الصّلوات المكتوبات الخمس، وذلك أنّ قبلها صلاتين وبعدها صلاتين، وهي بين ذلك وُسطاهُنَّ، والوُسطى: الفُعلى من قول القائل: وسطت القوم أَسِطُهُم سِطَةً ووُسُوطًا، إذا دخلت وسطهم، ويُقال للذّكر فيه: هو أوسطنا، وللأُنثى: هي وُسطانا"[2] ، وعندما ذكر قول من قال إنّها صلاة المغرب بيّن وجه ذلك قائلا: "ووجّه قبيصةُ بن ذُئيب قوله: (الوسطى) إلى معنى التوسُّط الذي يكون صفة للشيء، يكون عدلا بين الأمرين، كالرّجل المعتدل

---

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، كتاب التّفسير، باب: (وكذلك جعلناكم أمّة وسطا...) الآية، برقم: (4487) من حديث أبي سعيد.
(2) يُنظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطّبريّ: (2/627-629).
(3) تفسير القرآن العظيم، لإسماعيل بن كثير: (1/285).
(1) زاد المسير في علم التّفسير، لعبد الرّحمن بن عليّ بن محمد الجوزيّ: (1/154).
(2) جامع البيان للطّبريّ: (4/375).

القامة الذي لا يكون مُفرطا طوله ولا قصيرة قامته، ولذلك قال: ألا ترى أنّها ليست بأقلّها ولا أكثرها"[3].

كما أنّ الإمام ابن الجوزيِّ رحمه الله وجّه أقوال العلماء في المقصود بالصّلاة الوسطى قائلا: "وفي المراد بالوُسطى ثلاثة أقوال: أحدها: أنّها أوسط الصّلوات محلّا، والثّاني: أوسطها مقدارا، والثّالث: أفضلها...فإن قلنا: إنّ الوُسطى بمعنى الفُضلى جاز أن يدّعيَ هذا كُلُّ ذي مذهب فيها، وإن قلنا: إنّها أوسطها مقدارا فهي المغرب، لأنّ أقلّ المفروضات ركعتان، وأكثرها أربعا، وإن قلنا: إنّها أوسطها محلا، فللقائلين إنّها العصر أن يقولوا: قبلها صلاتان في النّهار وبعدها صلاتان في الليل؛ فهي الوسطى، ومن قال هي الفجر؛ قال عكرمة: هي وسط بين الليل والنّهار... ومن قال هي الظّهر قال: هي وسط النّهار، فأمّا من قال هي المغرب فاحتجّ بأنّ أوّل صلاة فُرضت الظُّهر، فصارت المغرب وُسطى، ومن قال هي العشاء فإنّه قال: هي بين صلاتين لا تقصران"[1].

– ثالثا: وجاءت هذه المادّة في كتاب الله بمعنى التوسُّط في الأمور والاعتدال فيها بين بين، وذلك في قوله تعالى:﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ ﴾ [المائدة: 89]، فالمفسّرون حملوا هذه الكلمة في هذه الآية على هذا المعنى، وهو أنّ المُكفِّرَ ينبغي عليه أن يسلُك سبيلا وسطا في إطعام العشرة مساكين من حيثُ المقدارُ، ومن حيثُ جودةُ الطّعام، سواءً بالنّظر إلى بلد المُكفِّر، أو بالنّظر إلى أهله، وفي هذا يقول الإمام الطّبريُّ: "وقال بعضهم: معناه من أوسط ما يُطعم من أجناس الطّعام الذي يقتاته أهل بلد المُكَفِّر أهليهم)[2]، ثمّ ذكر وساق بأسانيده من قال ذلك من أئمّة التّفسير ثمّ قال: (وقال آخرون: من أوسط ما يُطعم المكفِّرُ أهله، قال: إن كان ممّن يُشبع أهله أشبع المساكين العشرة، وإن كان ممّن لا يُشبعهم لعجزه عن ذلك أطعم المساكين على قدر ما يفعل من ذلك بأهله في عُسره ويُسره"[3].

وقال الإمام ابن الجوزيّ: "في قوله: (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قولان: أحدهما: من أوسطه في القدر، قاله عمر، وعليّ، وابن عبّاس، ومجاهد، الثّاني: من أوسط أجناس الطّعام، قاله ابن عمر، والأسود، وعبيدة، والحسن وابن سيرين "[4].

وقال القرطبيُّ: "تقدّم في سورة البقرة أنّ الوسط بمعنى الأعلى والخيار، وهو هنا: منزلةٌ بين منزلتين، ونصفٌ بين طرفين... وعن ابن عبّاس قال: كان الرّجلُ يقوت أهله قوتا فيه سعة، وكان الرّجل يقوت أهله قوتا فيه شدّة، فنزلت: (من أوسط ما تطعمون أهليكم)[5]، وهذا يدلُّ على أن الوسط ما ذكرناه، وهو ما كان بين شيئين "[6].

---

[3] المصدر نفسه: (367/4).

[1] زاد المسير لابن الجوزيّ: (283/1–284).

[2] جامع البيان: (624/8).

[3] المصدر نفسه: (634/8).

[4] زاد المسير: (414/2).

[5] أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الكفّارات، باب: (من أوسط ما تطعمون أهليكم)، برقم: (2113)، وصحّحه الألبانيُّ.

[6] الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد لن أبي بكر القرطبيُّ: (141/8–142).

– رابعا: وجاءت هذه المادّة بمعنى الأعدل والأخيَر والأفضل، وذلك في قوله تعالى في قصّة أصحاب الجنّة: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم:28]، حيثُ أنّ الوسطيّة هنا جاءت بمعنى: الخيريّة والأفضليّة، فقد روى الطّبريُّ بإسناده عن ابن عبّاس رضي الله عنه ومجاهد، وابن المسيّب، وسعيد بن جبير، وعكرمة: "أوسطُهم: أعدلُهم وخيرهم"[1]، وقال قتادة: "أي أعدلهم قولا، وكان أسرع القوم فزعا، وأحسنهم رجعة"[2]، وهذا المعنى أجمع عليه أهل التّفسير قاطبة.

– خامسا: وردت هذه المادّة بمعنى التوسُّط في المكان، وذلك في قوله تعالى:﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ [العاديات:5]، حيثُ ذكر المفسّرون أنّ المراد بالوسطيّة هنا التوسُّط في المكان.

يقول الإمام الطّبريُّ: "فوسطن بِرُكبانِهِنَّ جمع القوم، يُقال: وسَطْتُ القوم بالتّخفيف، ووسَّطْتُه بالتّشديد، وتوسّطته، بمعنى واحد"[3].

وقال ابن الجوزيّ: "قال المفسّرون: المعنى: توسّطن جمعا من العَدُوِّ فأغارت عليهم، وقال ابن مسعود: (فوسطن به جمعا) يعني: مزدلفة"[4].

وقال القرطبي: "(جمعا) مفعولٌ بـ(وسطن) أي: فوسطن برُكبانِهِنَّ العدُوَّ، أي الجمع الذي أغاروا عليهم... يُقال: وسَطْتُ القوم أَسِطُهُم وَسْطاً وسِطَةً، أي: صرتُ وسطهم... ويُقال: وَسطتُ القوم بالتّشديد والتّخفيف، وتوسَّطتُهم بمعنى واحد، وقيل: معنى التّشديد: جَعْلُها الجَمْعَ قسمين، والتّخفيف: صرن في وسط الجمع، وهما يرجعان إلى معنى"[5].

ومن هذه النّقول التي أثرت عن أئمّة التّفسير يتبيّنُ لنا معنى الوسطيّة هنا، وأنّها بمعنى التوسُّط وأخذ المكان الوسط بين الجمع.

الفرع الثّاني: الوسطيّةُ في السُّنّة النّبويّة: إنّ السُّنّة النبويّة هي الشّارحة والمُبيِّنة والمفسّرة للقرآن الكريم، ولهذا ناسب جدّا أن نذكر بعد الفرع السّابق المتعلِّق بالوسطيّة في القرآن الكريم هذا الفرع الذي نستعرض فيه بعض الأحاديث الواردة عن النّبيِّ صلى الله عليه وسلّم، والتي تدلُّ على مفهوم الوسطيّة، ومن الجدير بالذّكر هاهنا أن ننبّه على أنّ هناك أحاديث وردت فيها مادّة (الوسط) وإن لم تدلّ على معنى الوسطيّة المرادة في هذا البحث، وهناك أحاديث تدلُّ على مضمون الوسطيّة وفحواها، دون أن ترد تلك الأحاديث بمادّة (الوسط)، ولهذا فإنّني سأذكر تلك الأحاديث مقسّمة إلى قسمين، وذلك كالآتي:

القسم الأول: أحاديث وردت بمادّة (الوسط).

---

(1) يُنظر: جامع البيان للطّبريّ: (23/180-181).
(2) المصدر نفسُه: (23/ 181).
(3) المصدرُ نفسه: (24/582).
(4) زاد المسير: (9/209).
(5) الجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ : (23/436).

1) حديثُ أبي سعيد الخدريّ السّابق الذي أخرجه البخاريُّ في الصّحيح، وقد مرّ قريبا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:143]، حيثُ فسّر النبيُّ ﷺ الوسط هنا بالعدل والخيار، حيثُ أنّ أمّة النبيِّ صلى الله عليه وسلّم شهدت بالحقّ على دعوة نوحٍ عليه السّلامُ قومَه، والشّاهد من هذا أنّ الرسول ﷺ ذكر الوسطيّة هنا وفسّرها.

2) ما أخرجه الإمام التّرمذيُّ في سننه: لمّا نزل قوله تعالى:﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ [الرّوم:1-4]، خرج أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكّة بهذه الآية الكريمة، فقال ناسٌ من قريش: فذلك بيننا وبينك، زعم صاحبُك أنّ الرّوم ستَغلِبُ فارسَ في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟! قال: بلى -وذلك قبل تحريم الرّهان-، فارتهن أبو بكر رضي الله عنه والمشركون، وتواضعوا الرِّهانَ، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع: ثلاث سنين إلى تسع سنين؟! فسمِّ بيننا وبينك وسطا ننتهي إليه، فسمُّوا بينهم ستّ سنين[1].

فالوسط المذكور هنا في هذا الحديث هو بمعنى الوسط بين الطّرفين، حيثُ إنّ السّتّة هي الوسط بين ثلاث وتسع، فقبلها ثلاث وبعدها ثلاث[1].

3) وعن عبد الله بن معاوية الغاضريّ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: "ثلاثٌ من فعلهُنّ فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان: من عَبَدَ الله وحده، وعلم ألا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيِّبةً بها نفسُه، رافدة عليه كُلَّ عام، ولم يُعطِ الهرمة، ولا الدّرنة، ولا المريضة، ولا الشّرطَ اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم، فإنّ الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشرّه"[2].

والمقصود بالوسط هنا: هو مابين الجيِّد الفاخر من الغنم، والرّديء السَّيِّئ المعيب منها.

4) وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كُنّا عند النّبيِّ ﷺ فخطَّ خطًّا، وخطّ خطّين عن يمينه، وخطَّ خطّين عن يساره، ثمّ وضع يده على الخطّ الأوسط فقال: "هذه سبيل الله"، ثمّ تلا هذه الآية:﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام:153]"[3]، والوسط هنا هو الشّيء بين الشّيئين المتوسِّطُ بينهما.

5) ما أخرجه البخاريُّ في صحيحه[4] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: "إنّ في الجنّة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدّرجتين كما بين السّماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب (ومن سورة الروم)، برقم: (3194)، من حديث نيار بن مسلم الأسلمي، وحسنّه الألبانيُّ.

(1) يُنظر: الوسطيّة في ضوء القرآن الكريم، لناصر العمر: (ص:24).

(2) أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الزّكاة، باب: زكاة السّائمة، برقم: (1583)، وصحّحه الألبانيُّ.

(3) أخرجه ابن ماجه في مقدمة سننه، باب: اتّباع سنّة النبيّ صلى الله عليه وسلّم، برقم: (11)، وصحّحه الألبانيّ.

(4) كتاب الجهاد والسير، باب: درجات المجاهدين في سبيل الله، برقم: (2790).

الفردوس؛ فإنّه أوسطُ الجنّة، وأعلى الجنّة"، والأوسط هنا: الأفضل والأحسن، يقول الحافظ رحمه الله: "والمراد بالأوسط هنا: الأعدلُ والأفضل"[5].

6) وعن ابن عبّاس أنّ النبيّ ﷺ قال: "البركة تنزل في وسط الطّعام، فكلوا من حافّتيه ولا تأكلوا من وسطه"[6]، ومعنى الوسط هنا واضحٌ، وهو مركز الطّعام ومنتصفه.

7) وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ: خطَّ خطًّا مُربّعا، وخطّ وسط الخطِّ المربّع، وخطوطا إلى جانب الخطّ الذي وسط الخطّ المربّع، وخطًّا خارجا من الخطِّ المربّع، فقال: "أتدون ما هذا؟!"، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "هذا الإنسانُ الخطُّ الأوسطُ، وهذه الخُطُوطُ إلى جنبه: الأعراضُ تنهشُه -أو تنهسُه- من كُلِّ مكان، فإن أخطأه هذا أصابه هذا، والخطُّ المربّع: الأجلُ المحيطُ، والخطُّ الخارجُ: الأملُ"[1].

والمقصود بالوسط هنا: هو ما كان بين عدّة أطراف، والمسافة بينه وبين تلك الأطراف متساوية.

8) وقال ﷺ: "وسِّطوا الإمام وسدُّوا الخلل"[2]، ومعنى وسِّطوا هنا: أي اجعلوا الإمامَ في منتصف الصَّفِّ من أَمَامِه، بحيثُ تكون أطراف الصَّفِّ متساوية بالنّسبة لموقف الإمام.

9) وقال ﷺ: "لعن الله من جلس وسط الحلقة"[3]، والوسط هنا: الدّاخل، أي داخل الحلقة وإن لم يكن في مركزها ومنتصفها تماما، بل كان قريبا إلى أحد الأطراف فهو وسطها.

10) وقال ﷺ: "أنا زعيم ببيت في ربض الجنّة لمن ترك المراء وإن كان مُحقّا، وببيت في وسط الجنّة، لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنّة لمن حسُن خُلُقُه"[4]، والوسط هنا: ما كان بين الأسفل والأعلى.

11) وعن عقبة بن عامر أنّ النّبيّ ﷺ قال: "لأن أمشي على جمرة أو سيف، لأن اخصف نعلي برجليَّ، أحبُّ إليَّ أن أمشي على قبر مُسلم، وما أُبالي أوَسَط القبور قضيتُ حاجتي، أو وسط السُّوق"[5]، والمراد بالوسط هنا: الوسط المكاني.

12) وعن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال: "ليس للنّساء وسط الطّريق"[6]، والمراد بالوسط هنا: الوسط المكانيُّ أيضا، لأنّ المشروع للمرأة أن تكون بجانب الطريق لا في وسطه، بسب ما يحصل من الفتنة بسبب توسُّطها

---

(5) فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ، لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلانيّ: (52/7).

(6) أخرجه الترمذيُّ في السّنن، كتاب الأطعمة، باب: ما جاء في كراهية الأكل من وسط الطّعام، برقم: (1805)، وصحّحه الألبانيّ

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزّهد، باب: الأمل والأجل، برقم: (4231)، وصحّحه الألبانيُّ.

(2) أخرجه أبو داود في السّنن، كتاب الصّلاة، باب: موقف الإمام من الصّفّ، برقم: (681)، من حديث أبي هريرة، وضعّفه الألبانيّ.

(3) أخرجه التّرمذيُّ ، كتاب الأدب، باب: ما جاء في كراهيّة القعود وسط الحلقة، من حديث حذيفة، برقم: (2753)، وضعّفه الألبانيّ.

(4) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب: في حسن الخُلُق، من حديث أبي أمامة، برقم: (4800)، وحسّنه الألبانيُّ.

(5) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجنائز، باب: النّهي عن المشي على القبور والجلوس عليها، برقم: (1567)، وصحّحه الألبانيُّ.

(6) أخرجه ابن حِبّان في صحيحه، كتب الحظر والإباحة، ذكر الزّجر أن تمشي المرأة في حاجتها في وسط الطّريق، برقم: (5601)، وحسنه الألبانيُّ في الصّحيحة: (511/2).

الطّرقات.

القسم الثّاني: أحاديث في مضمون الوسطيّة وفحواها.

1) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: "إنّ هذا الدّين يُسرٌ، ولن يشادّ الدّينَ أحدٌ إلا غلبه، فسدّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والرّوحة، وشيء من الدُّلجة"[1].

قال الحافظ رحمه الله: "(فسدّدوا) أي الزموا السّداد، وهو الصّواب من غير إفراط ولا تفريط، قال أهلُ اللغة: السّداد التوسُّط في العمل"[2].

2) وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: "إنّ الله لم يبعثني مُعنِّتًا، ولا متعنِّتًا، ولكن بعثني مُعلّما مُيسِّرا"[3].

3) وعن محجن بن الأدرع رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال: "إنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أيْسَرُه، إنّ خير دِينِكُم أيسَرُه"[4].

قال السّنديُّ: "(أيسرُه) إشارة إلى الاعتدال والتوسُّط في الصّلاة وغيره دون الإفراط".

4) وعن أبي برزة الأسلميِّ رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: "عليكم هَدْيًا قاصِدًا، عليكُم هَدْيًا قاصِدًا، عليكُم هَدْيًا قاصِدًا، فإنّه من يُشادّ الدّينَ يغلِبْهُ"[5]، وفي رواية لأبي هريرة: "القصدَ القصدَ تبلغوا"[6]، والقصد هو الاعتدال والوسطيّة، ولهذا قال ابن حجر: "(القصدَ القصدَ) بالنّصب على الإغراء: أي الزموا الطّريق الوسط المُعتدل"[7].

وكما أنّ النّبيّ ﷺ حثّ على المنهج الوسط المعتدل، وسلوك الهدي القاصد في هذه الأحاديث؛ فإنّه ﷺ حذّر كل الحذر من منهج الغلوّ والإفراط في دين الله تعالى، كما في الأحاديث التالية:

5) عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: "هلك المُتَنَطِّعُونَ"[8] قالها ثلاثا.

قال ابن الجوزيِّ رحمه الله: "التنطُّع: التعمُّق والغلُوُّ، والتكلُّف لما لم يُؤمر به، فالحديثُ ظاهره يُخبر عن حال المتنطِّعين ومصيرهم، وهو الهلاك، وبذلك فهو يُرشد إلى التوسُّط والاعتدال في جميع الأمور، ويكون ذلك هو سبيل النّجاة"[1].

6) وعن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ غداة العَقَبَةِ وهو على ناقته: "الْقُطْ لي حصًى"، فلقطتُ له سبع حصيات، هُنّ حصى الخذف، فجعل ينفضُهُنّ في كفِّه وهو يقول: "أمثالَ هؤلاء فارمُوا" ثمّ

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدّين يُسر، برقم: (39).

(2) فتح الباري: (1/175).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه ضمن حديث طويل، كتاب الطّلاق، باب تخيير المرأة لا يكون طلاقا إلا بنيّة، برقم: (1478).

(4) أخرجه أحمد في المسند (31/313)، برقم: (18976).

(5) رواه أحمد في المسند (33/31-32)، برقم: (19786).

(6) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الرّقاق، باب القصد والمداومة على العمل.

(7) فتح الباري: (14/601).

(8) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب العلم، باب هلك المتنطّعون، برقم: (2670).

(1) غريب الحديث لابن الجوزيّ: (2/418).

قال: "يا أيُّها النّاسُ! إيّاكم والغلوّ في الدّين، فإنّما أهلك من كان قبلَكُم الغُلُوُّ في الدّين "[2].

7) وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النّبيِّ ﷺ يسألون عن عبادة النّبيِّ ﷺ، فلمّا أُخبروا بها كأنّهم تقالُّوها، فقالوا وأين نحن من عبادة النّبيِّ ﷺ؟! قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، قال أحدهم: أمّا أنا أصلِّي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدّهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النّساء فلا أتزوّجُ أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما إنّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوَّجُ النِّساء، فمن رغب عن سُنّتي فليس منّي "[3].

فكُلُّ هذه الأحاديث الواردة عن النّبيّ ﷺ تدل بفحوى خطابها على ضرورة التوسُّط والاعتدال في الأمور كُلِّها، وأهميّة سلوك الطّريق الوسط العدل، وأن من انحرف عن الوسطيّة إلى إحدى طرفي النّقيض؛ فإن مآله إلى الهلاك والشّطط والانحراف في دين الله تعالى.

المبحث الثّاني: في بيان مقاصد الوسطيّة، وخصائصها، ومعاييرها.

المطلب الأوّل: في بيان مقاصد الوسطيّة.

قبل الشروع والوقوف على أهمّ مقاصد الوسطيّة ومراميها، ينبغي علينا أن نقف عن كثبٍ أمام ملامح العلاقة بين مقاصد الشّريعة والوسطيّة، وفي سبيل ذلك ينبغي علينا أن نتأمّل روح الشّريعة الغرّاء، التي نجدها جارية في تكاليفها على الطّريق الوسط العدل، الآخذ من الطّرفين بقسط لا ميل فيه، ومن هنا أمكننا القول: إنّ تحقيق الوسطيّة والاعتدال يُعدُّ من أهمِّ مقاصد الشّريعة ومراميها التي تهدف إليها من خلال تشريعاتها وأحكامها، حيثُ إنّ كُلّ أحكام الشّريعة، وكليّاتها الخمس تهدف وترمي إلى تحقيق هذا المقصد العظيم، ألا وهو تحقيق المنهج الوسط في الأمور كلِّها، وهذا هو الصِّراط المستقيم، الذي لا ميل فيه إلى جانب الإفراط والتعمُّق والتّشديد على النّفس وعلى الآخرين، ولا إلى جانب التّساهل الذي يصل إلى حدِّ التّحلُّل والانسلاخ من الأحكام، ولهذا نجد الإمام الشّاطبيَّ رحمه الله تعالى، الذي يُعدُّ أوّل من قعّد وأصّل علم المقاصد، نجده أشار إلى هذه العلاقة والصِّلة بين المقاصد والوسطيّة على النّحو الذي أشرنا إليه آنفا، حيثُ قال رحمه الله: "الشّريعة جارية في التّكليف بمقتضاها على الطّريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطّرفين بقسط لا ميل فيه، الدّاخل تحت كسب العبد من غير مشقّة عليه ولا انحلال"[1]، وقال في موضع آخر مؤكِّدًا لهذا المعنى: "فإذا نظرت في كُلِّيّة شرعيّة فتأمّلْها؛ تجدها حاملة على التوسُّط "[2].

وإذا عرفنا هذا الأمر واستقرّ في أذهاننا، أمكن لنا بعد ذلك إدراك وتحديد أهمّ مقاصد الوسطيّة وأهدافها، التي لا تختلف في جوهرها عن مقاصد الشريعة وأهدافها، ويُمكن لنا ذكر هذه المقاصد والأهداف على النّحو التّالي[1]:

---

[2] أخرجه ابن ماجة في السنن، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرّمي، برقم: (3029).

[3] أخرجه البخاري في الصّحيح، كتاب النّكاح، باب التّرغيب في النّكاح، برقم: (5063).

[1] الموافقات لإبراهيم بن موسى الشّاطبيُّ: (279/2).

[2] المصدر نفسه: (286/2).

[1] يُنظر في بيان مقاصد الوسطيّة وأهدافها: كلمات في الوسطيّة الإسلاميّة ومعالمها للقرضاويّ (ص:15-19)، الخصائص العامّة

– أولا) تحقيق الخيريّة: فإنّ من أهمّ مميزات هذه الأمّة المحمّديّة هي خيريّتُها وتميُّزها على سائر الأمم الأخرى، ولهذا قال جلّ شأنه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران:110]، وتُعدُّ الوسطيّةُ والاعتدال أبرزَ دلائل الخيريّة ومظاهرها، فما تبوّأت هذه الأُمّةُ هذه المكانة المرموقة بين الأمم، وما كانت خيرَها وأفضلها؛ إلا باتّخاذ منهج الوسطيّة لها مسلكا وطريقا ومنهجا، فالوسطيّة هي دليل خيريَّة هذه الأمّة، ومظهرُ فضلها وعنوان تميُّزها، وهكذا الأمرُ بالنّسبة للأمور المادّيّة والمعنويّة؛ نجد التوسُّط دائما علامة على الخيريّة، فأفضل حبّات العِقْدِ هي واسطته، ونرى رئيس القوم وزعيمهم في الوسط والأتباع من حوله، وفي الأمور المعنويّة نجد التوسُّط دائما خيرا من التطرُّف.

– ثانيا) تحقيق وتمثيل الأمن والأمان: فإنّ الوسطيّة تمثّلُ ساحل الأمان والبُعدَ عن الأخطار، فقد اقتضت سُنّة الله تعالى في الخلق والتكوين أنّ الأطراف المتباعدة هي الأكثرُ عُرضةً للخطر والفساد والهلاك، وذلك بخلاف الوسط الذي غالبا ما يكون محميًّا أكثر من غيره، وفي هذا يقول الشّاعرُ:

كانت هي الوسطَ المحمِيَّ فاكتنفت بها الحوادثُ حتّى أصبحتْ طَرَفا. [البسيط]

وهكذا شأنُ النِّظام الوسط والمنهجِ الوسط، فإنّه أحرى وأجدرُ بالأمن والأمان من غيره، وفي الحديث: "إنّما يأكلُ الذِّئبُ من الغنم القاصية"[2] أي: النائية البعيدة عن الوسط.

– ثالثا) تحقيق القوّة: فمن أعظم أهداف الوسطيّة ومقاصدها هي تحقيق القوّة في هذه الأمّة وتعزيزها، فكُلّما كانت الأمّة متمسّكةً بالمنهج الوسط وسائرة على نهجه ومنواله؛ كُلّما كانت أكثر قوّة وعزّة، وما انحرفت عن الوسطيّة ومالت إلى إحدى طرفي النّقيض؛ إلا وزادها ذلك وهاءً وضعفا، فالوسطيّة هي دائما مركزُ القوّة والصلابة، ألا ترى أنّ الشّباب والفُتُوّةَ وسط بين ضعفين (الطّفولة والشّيخوخة)، كما أنّ الشّمس في وسط النّهار أكثرُ سطوعا وأشدُّ حرًّا منها في طرفي النّهار أوّلِه وآخرِه، كما أنّ أيَّ مادّة يُعدُّ مركزُ الوسط فيها هو الأقوى والأصلب.

– رابعا) تحقيق وحدة الأُمّة: فمن أهمّ مقاصد الوسطيّة هو تحقيق وتجسيد الوحدة في هذه الأُمّة، فكُلّما كثر التشدُّدّ والتطرُّف، واستشرى الانحلال والتميُّعُ؛ كُلّما كثُرت الآراء، وتفرّقت الأهواء أكثر فأكثر، ولا تتحقّقُ وحدةٌ للأمّة إلا بسلوك منهج واحد، تنصهر فيه كُلُّ الرُّؤى، وتجتمع فيه الكلمة، هذا المنهج هو منهج الوسطيّة، فحين تتعدّدُ الأطراف وتتكاثر؛ يبقى الوسط واحدا لا تعدُّد فيه، وعنده تتلاقى كُلُّ الأطراف، حيثُ إنّه هو الوسط وهو المركز.

– خامسا) محاربة التطرُّف والتشدُّد: فيُعد محاربة هذه الظّاهرة الخطيرة التي تفتك بالأفراد والمجتمعات من

للإسلام للقرضاويّ (ص:130–134)، الوسطيّة في الإسلام وأثرها في الوقاية من الجريمة، لعبد العزيز عثمان شيخ محمد (ص:32–40).

[2] أخرجه أبو داود في السّنن، كتاب الصّلاة، باب: التّشديد في ترك الجماعة، حديث رقم: (547)، من حديث أبي الدّرداء، وحسّنه العلامة الألبانيُّ.

أهمّ مقاصد الفكر الوسطيِّ وأولويّاته، فالوسطيّة تهدف في روحها وجوهرها إلى حصار ومحاربة ظاهرتي التطرُّف والتشدُّد في دين الله تعالى، القائمين على إقصاء الرّأي الآخر وعدم الاعتراف به، وسوء الظنّ بالنّاس، وغيرها من المظاهر السيّئة التي تُعدُّ أسبابا لهذه الظّاهرة، وكُلُّها تحصُلُ وتقع بسبب غياب فكر التوسُّط والاعتدال عن أذهان النّاس، فتجسيد منهج الوسطيّة وتكريسها في الأفراد والمجتمعات هو أعظم واقٍ يقي من السُّقوط في هاوية التطرُّف.

– سادسا) تحقيق اليُسر ورفع الحرج: إنّ أوّل ما يتبادر إلى أذهان النّاس حينما تُذكر الوسطيّةُ هو اليُسر والتّخفيف ورفع الحرج والعنت، وهذا الفهم صحيحٌ لا غبار عليه، فإنّ من أبرز مقاصد الوسطيّة التي تنشُدُها هو التّسهيل على النّاس، ورفع الحرج والإعنات عنهم، في حدود الشّرع وضوابطه، وكُلُّ من انحرف عن الوسطيّة ومال عنها فإنّه يبغي النّاس – شَعَرَ أم لم يَشعُر– العنت والتّشديد، فلا خير إلا في سلوك المنهج الوسط الأعدل، حتّى يتماشى ذلك وروحَ الشّريعة الإسلاميّة المبنيّة في أصلها على التّخفيف ورفع الأغلال والآصار التي وُضعت على الأمم السّابقة.

المطلب الثّاني: خصائص الوسطيّة.

إنّ المُتأمِّلَ في معنى الوسطيّة وكُنهها، وكذلك الغايات التي تهدف إليها؛ يجد لها جملة من الخصائص والميِّزات التي تُميِّزها عن غيرها، وإننا في هذا المطلب نحاول إن شاء الله ذكر أهمِّ هذه الخصائص التي طبعت وميّزت ملامح الوسطيّة وجوهرها، على نحو من الإيجاز والاختصار وذلك كالآتي[1]:

أوّلا) الربّانيّة: فالخصِّيصَةُ الأولى من خصائص الوسطيّة هي الرّبّانيّة، والرّبّانيّة مصدرٌ صناعيٌّ معناه الانتساب إلى الرّبّ، والمقصود بالرّبّانيّة هنا أمران: ربّانيّة المصدر والمنهج، وربّانيّة الغاية والوجهة[2].

1) ربّانيّة المصدر والمنهج: والمقصود بها أنّ المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى الوسطيّة منهجٌ ربّانيٌّ خالص، ولم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو أسرة، أو طبقة، أو حاكم أو محكوم، وإنّما أتى هذا المنهج نتيجةً لإرادة الله تعالى الذي أراد لعباده سلوك هذا المنهج القويم[3]، فليست الوسطيّة بدعة جديدة في دين الإسلام تترنّحُ بين طرفين، بل هي منهجٌ أصيلٌ في دين الله تعالى، وهي الوصف الرّبّانيُّ لهذه الأمّة[4]، حيث قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾.

2) ربّانيّة الغاية والوجهة: والمراد بذلك أنْ يُجعل من الوسطيَّةِ طريقا للوصول إلى هدف جليل وغاية عُظمى، ألا وهي حُسنُ الصِّلة بالله تعالى، والحصولُ على مرضاته، فليس الوسطيّة مطيّةً يَتَّكِئُ عليها الأفراد والجماعات للتّرويج لأفكارهم وآرائهم تحت شعار الوسطيّة، فمن أعظم خصائص هذا المنهج الكريم هو أنّ

---

(1) يُنظر في بيان خصائص الوسطيّة: الخصائص العامّة للإسلام، للدّكتور يوسف القرضاويّ، الوسطيّة في الإسلام، لفريد محمد هادي عبد القادر (ص:306–345).

(2) الخصائص العامّة للإسلام، للقرضاويّ (ص:9).

(3) المصدر نفسه: (ص:36).

(4) الوسطيّة في الإسلام وأثرها في الوقاية من الجريمة: (ص:23).

الغاية منه والهدف من ورائه هو الوصول إلى غاية ربّانيَّةٍ تعُمُّ الجميع[5].

ثانيا) التّوازن بين الرُّوحيّة والمادّيّة: فمن خصائص الوسطيّة أيضا وسماتها: هو تحقيق التوازن بين الجوانب الرّوحيّة الدّينيّة، والاحتياجات الماديّة الدُّنيويّة، فالوسطيّة التي يدعو إليها الإسلامُ لا تُغلِّبُ إشباع الجانب الماديِّ في الإنسان، وعمارة الجانب الماديِّ في الحياة، وذلك لأنّ هذا التّغليب يُولِّدُ التّرف والطُّغيان، والصّراع على مُتع الحياة الدّنيا، كما أنّها لا تُغلِّبُ أيضا جانب حرمان النّفس من طيِّبات الحياة وزينتها، وتعطيل القوى عن تعمير الأرض وبنائها، والانقطاع عن العالم والتفرُّغ للعبادة، وأن يكون هذا هو المنهج الغالب على الحياة، فالوسطيّة لا تدعو إلى تغليب هذا ولا ذاك، بل قامت الوسطيّةُ بين هاتين النّزعتين، واتّخذت الموازنة بين هذين النّمطين لها شعارا ومنهجا، وهذا الأمرُ يُعدُّ من أبرز سمات الوسطيّة ومميزاتها وخصائصها[1].

ثالثا) الثّبات والاستمرار: فمن أخصّ مميّزات الوسطيّة الثّبات، فجذورها عميقة في النّفس البشريّة، وراسخة رسوخ الحقِّ في النّفس وفي الوجود، فهو حقٌّ واحدٌ موصولٌ بالله تعالى، ثابتٌ وطيدٌ عميقُ الجذور، كما أنّ الوسطيّة لمّا كانت قائمة على الرُّؤية الشّموليّة العامّة للكون والحياة، ورفضها تجزئة الإسلام وتقسيمه، وتحذيرها من الأفكار الهدّامة والاتجاهات المنحرفة؛ كان عُمرها طويلا، واستمرارها في مناهج الحياة المثاليّة خالدا، وأثرها في الفرد والمجتمع باقيا، وهذا بخلاف التّطرُّف والتعصُّب والغُلُوِّ؛ فإنّه يكون دائما قصير العمر مهما نال من شُهرة، ولأجل ذلك كان ضروريّا اتّصاف منهج الوسطيّة بعوامل البقاء والثّبات والاستمرار[2].

رابعا) الواقعيّة: فمن أبرز خصائص الوسطيّة ومميّزاتها: الواقعيّةُ، فهي تتعامل مع كُلِّ شيء وفق طبيعته وحقيقته المتكاملة، فهي تتعامل مع الإنسان وفق طبيعته وفطرته التي خُلق عليها، وتتعامل مع الحياة وفق طبيعتها وحقيقتها التي خُلقت عليها، فالوسطيّة بما تحمل من مضامين الخير والعدالة لا تنسلخُ عن أرض الواقع لتعيش في الخيال، كما أنّها لا تتقوقع في ضيق الأفق وقِصَرِ النّظر لتتنازل عن عدالتها وخيريّتها، بل تحاول الصّعود بالإنسان مُستثيرَةً جوانب القُوّة والإيجابيّة فيه، ولا تغفل عن مراعاة ضعفه الطّبيعيِّ أثناء عمليّة الصُّعود[3].

المطلب الثّالث: معايير الوسطيّة وضوابطها.

نحاول في هذا المطلب الأخير ذكرَ جملة من معايير الوسطيّة وضوابطها، وذلك حتّى لا يدّعيَ هذا المنهج من لا يفهمه ولا يعيه، ولا يخوض فيها من هبّ ودبّ، وفي ما يلي جملة من هذه المعايير[1]:

– المُلاءمة بين ثوابت الشّرع ومتغيّرات العصر: وذلك عن طريق ملاحظة أثر تغيُّر الزّمان والمكان والحال في تغيُّر الفتوى، وفي أسلوب الدّعوة والتّعليم، مع ضرورة مراعاة الثّبات في الأهداف والغايات، والمرونة والتطوُّر في الوسائل والآليات.

---

[5] الخصائص العامّة للإسلام: (ص:9–10).

[1] يُنظر: الخصائص العامّة للإسلام: (ص:140–142).

[2] الوسطيّة في الإسلام، لفريد عبد القادر: (ص:326).

[3] المصدر نفسه: (ص:345).

[1] يُنظر في بيان هذه المعايير: كلمات في الوسطيّة الإسلاميّة ومعالمها، للقرضاويّ: (ص:39–57)، الوسطيّة والاعتدال، للقرضاويّ، بحث ضمن مؤتمر الوسطيّة بلبنان: (ص:74–97).

– فهم النّصوص الجزئيّة في ضوء مقاصدها الكُليّة: بحيثُ لا يُعارض أحدهما الآخر، ولا يُكتفى بالجزئيّ دون الكُلّيّ أو العكس.

– التّشديد في الأصول والكلّيّات، والتّيسير في الفروع والجزئيّات.

– التّيسير في الفتوى والتّبشير في الدّعوة: وذلك اتباعا للمنهج القرآنيّ، والغَرْزِ النبويّ، ولئن كان منهج التّيسير والتّبشير مطلوبا في كُلّ مكان؛ فهو أشدُّ ما يكون طلبا في هذا العصر، الذي تعقّدت فيه حياة النّاس، واختلطت فيه المعايير والموازين.

– اتّخاذ منهج التّدرُّج الحكيم: في الدّعوة والتّعليم والإفتاء والتّغيير، وعدم استعجال الأشياء قبل أوانها، مراعاة لهذه السُّنّة الكونيّة والشّرعيّة ألا وهي: سُنّةُ التّدرُّج.

– احترام العقل والتّفكير، والدّعوة إلى النّظر والتدبُّر: في آيات الله الكونيّة والشّرعيّة، وتكوين العقليّة العلميّة، ومحاربة الجمود والتّقليد.

– الفهم الشّمُوليُّ التّكامليُّ للإسلام: بوصفه عقيدة وشريعة، علما وعملا، عبادة ومعاملة، دعوة ودولة، دينا ودُنيا، حضارة وأُمّة.

– وضع التّكاليف في مراتبها الشّرعيّة: وفهمها فهما متوازنا، وتنزيلها منازلها وفق ما جاءت به النّصوص الشّرعيّة، فلا يُؤخَّر ما حقُّه التّقديم، ولا يُقدَّم ما حقُّه التّأخير، ولا يُصغَّر الكبير، ولا يُكبَّرُ الصّغير، وهذا ما يُطلق عليه فقه الأولويّات.

– التّركيز على القيم الأخلاقيّة: التي دعا إليها الإسلام، سواءً كانت هذه الأخلاق فرديّة أم اجتماعيّة، ورفض موقف الذين يعتبرون العبادات الشّعائريّة هي كُلُّ شيء، وموقف الذين يعتبرون الأخلاق هي كُلّ شيء.

– العناية بعمارة الأرض وتحقيق التّنمية المتكاملة: ماديّة وبشريّة، والتّعاون على كُلّ ما يُيسِّر المعيشة للنّاس، وكلّ ما يشيع الجمال في الحياة.

– السّعي على جمع الشّتات وتقريب الرُّؤى: والعمل على تجميع كُلّ القوى العاملة لنُصرة الإسلام في صفٍّ واحد، مع اعتبار الاختلاف إذا كان من قبيل التنوُّع لا التّضادّ والصّراع.

– الدّعوة إلى المبادئ والقيم الإنسانيّة والاجتماعيّة: وذلك مثل: العدل، والشُّورى، والحرّيّة والكرامة، وحقوق الإنسان.

فهذه جملة من ضوابط الوسطيّة ومعاييرها التي من شأنها أن تضبط المنهج والفكر الوسطيّ، ولا تجعله مصطلحا فضفاضا يدّعيه كُلّ صاحب منهج أو دعوة، كما أنّ هذه المعايير من شأنها أن تجعل الوسطيّة منهجا عالميّا، لا يتقوقعُ على جانب من جوانب الدّين فقط، بل يشمل جميع مناحي الحياة، وكافّة جوانب العيش، من غير تجزئة لأحكام الدّين وتعاليمه.

الخاتـمة

فبعد هذا العرض الذي سبق ذكره وبيانه؛ فإنّي أجد من المناسب جدّا أن أذكر ما توصّلت إليه في هذا البحث من نتائج فيما يلي:

1) أنّ المعنى اللُّغويّ لكلمة (وسط) يدلُّ على معانٍ كثيرة منها: ما بين طرفي الشّيء، والخيريّة والأفضليّة،

والعدل، والتوسُّط في الأشياء بين بين.

2) أنّه لا تلازم بين الوسطيّة والوسط، فكُلُّ وسطيّة فهي وسط ولا شكّ، وليس كلُّ وسط يقتضي بالضّرورة أن يكون دليلا على الوسطيّة.

3) مصطلح الوسطيّة لا يصحُّ إطلاقه إلا إذا توافرت صفتان وهما: الخيريّة والبينيّة، وعلى هذا الأساس فإذا جاء أحد الوصفين دون الآخر؛ لم يصح إطلاق الوسطيّة حينئذ.

4) أنّ مادّة (وسط) وردت في القرآن الكريم في عدّة مواضع، وذلك بتصاريف متعدّدة، حيثُ وردت هذه المادّة في القرآن الكريم بلفظ: (وسطا)، و(الوُسطى)، و(أوسط)، و(أوسطهم)، و(فوسطن)، حيثُ جاءت كُلُّ كلمة حسب معناها الذي لا يخرج عن المعاني اللغويّة للوسطيّة.

5) أنّ مادّة (وسط) وردت في أحاديث كثيرة من أحاديث النّبيِّ ﷺ على اختلاف معانيها ومدلولاتها، إذ ليس كُلُّ وسطيّة جاءت في حديث ما تدلُّ على ما نحن بصدده، ولكنها لا تخرج عن معاني الوسطيّة اللغويّة.

6) الوسطيّة لها علاقة بمقاصد الشّريعة الإسلاميّة، حيثُ أنّ تحقيق الوسطيّة والاعتدال يُعدُّ من أهمّ مقاصد الشّريعة ومراميها التي تهدف إليها من خلال تشريعاتها وأحكامها، فكُلُّ أحكام الشّريعة وكُلّيّاتها الخمس تهدف إلى تحقيق هذا المقصد العظيم، ألا وهو تحقيق المنهج الوسط في الأمور كلها.

7) للوسطيّة مقاصد جليلة تهدف إلى تحقيقها منها: تحقيق الخيريّة، وتحقيق الأمن والأمان، ورفع الحرج وجلب التيسير، تحقيق وحدة الأمّة وقوّتها وغيرها من المقاصد الجليلة والأهداف النّبيلة.

8) كما أن للوسطيّة خصائص ومُميِّزات، ومعايير وضوابط ترسم حدود الوسطية ومفهومها الصّحيح، وذلك حتّى لا يدّعي كُلُّ من هبّ ودبّ هذا المنهج الكريم.

كما أنّه من خلال هذا البحث يُمكن للباحث أن يتقدّم بالتّوصيات والتّوجيهات التّالية:

1) بذل الجهود العلميّة من قِبَلِ أهل العلم وطلبته، ومن قبل المؤسسات والورشات العلميّة في نشر وتكريس مفهوم الوسطيّة.

2) تفعيل النّدوات والمحاضرات لبيان أهميّة هذا الموضوع، وأثره الإيجابيّ على النّاس والمجتمعات.

3) الممارسة العمليّة والواقعيّة لهذا المنهج من قبل العلماء وطلبة العلم، والدّعاة المتصدّرين للدّعوة إلى الله، والخروج بهذا المنهج من حيِّز التّنظير إلى أرضيّة التّطبيق.

4) زيادة التّوعية بأهميّة التّربية على منهج الوسطيّة في جميع شؤون الحياة، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات.

5) العناية بمعرفة وإدراك مقاصد الشّريعة الإسلاميّة وروحها، فهذا الذي من شأنه أن يُبرز وسطيّة الشّريعة الإسلاميّة ويُسرها، وبُعدها عن التّطرّف والغُلُوّ.

وفي الختام فإنّني أسأل الله تعالى أن يُوفّق هذه الأمّة لما فيه صلاحها ورشادها، وأن يأخذ بأيدي أبنائها إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، وأن يُؤلّف بين قلوبهم، وأن يوحّد صفوفهم، إنّه وليُّ ذلك والقادر عليه، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.